شرح قصيدة

في السير إلى الله والدار الآخرة

تصنيف الإمام

عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي

المتوفى سنة (١٣٧٦) رحمه الله تعالى

منقول من التسجيل الصوتي للشيخ الدكتور

صالح بن عبد الله بن حمد العصيمي

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

النسخة الأولى

مَحفُوظَةٌ
كُلُّ الحُقُوقِ

لَا يَسمَحُ بِطَبعِ التَّفْرِيْغِ لِلأَغرَاضِ التِّجَارِيَّةِ
أَوْ تَرجَمَتِهِ أَوْ اختِصَارِهِ دُوْنَ مُوَافَقَةٍ خَطِّيَّةٍ

للإعلام بخطأٍ طباعيٍّ أو الاستدراك أو إبداء رأيٍ؛

يُرجى المراسلة على البريد الآتي : Abdellahdj٢٤@gmail.com

سلسلة شروحات وتطريزات فضيلة الشيخ (٢٧)

شرح قصيدة في السير إلى الله والدار الآخرة

تصنيف الإمام

عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي

المتوفى سنة (١٣٧٦) رحمه الله تعالى

منقول من التسجيل الصوتي للشيخ الدكتور

صالح بن عبد الله بن حمد العصيمي

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

النسخة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الَّذي جعل للعلم أصولا، وسهَّل بها إليه وصولًا، وأشهد ألَّا إله إلَّا الله وحده لا شـــريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه مَا بُيِّنت أصول العلوم، وسلَّم عليه وعليهم ما أُبرِز المنطوق منها والمفهوم.

أمَّا بَعْدُ:

فهذا شرح (**الكتاب التَّاسع**) من برنامج (**أصول العلم**) في (**مستواه الثَّاني**) في (**سنته السَّادسة**)؛ ثمانٍ وثلاثين وأربعمائةٍ وألفٍ، وتسعٍ وثلاثين وأربعمائةٍ وألفٍ، وهو كتاب «**قصـيدةٌ في السَّـير إلى الله والدَّار الآخرة**»، للعلَّامة عبد الرَّحمن بن ناصرِ ابن سِعديٍّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، المتوفَّى سنة ستٍّ وسبعين وثلاثمائةٍ وألفٍ (١٣٧٦).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَعِدَ الَّذِينَ تَجَنَّبُوا سُبُلَ الرَّدَى وَتَيَمَّمُوا لِمَنَازِلِ الرِّضْوَانِ

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

ابتدأ المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ قصيدته بالبسملة مقتصِرًا عليها؛ اتِّباعًا للوارد في السُّنَّة النَّبويَّة في مراسلاته ومكاتباته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الملوك، والتَّصانيف تجري مجراها.

واستفتاح الشِّعر النَّافع بالبسملة كاستفتاح النَّثر النَّافع، سواءً بسواءٍ، فلا وجه للمنع منه مع إرادة الذِّكر؛ فهو مستحبٌّ، أو جائزٌ في أقلِّ وجهيه.

ثمَّ شرع يَنعتُ منازل السَّائرين إلى الله، و**السَّير إلى الله**: سلوك الصِّراط المستقيم؛ ذكره ابن رجبٍ في «المحجَّة في سير الدُّلْجة».

فإذا أُطلِق هذا اللَّفظ (السَّير إلى الله) فالمراد به: سلوك صراطه المستقيم، فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعث إلينا رسولًا هو محمَّدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنزل عليه كتابًا هو القرآن، وجعل له دينًا هو الإسلام، والوعاء الحاوي لهذا هو الصِّراط المستقيم، فإذا قيل: (السَّير إلى الله)؛ فمرادهم: سلوك صراطه المستقيم، اتِّباعًا لمحمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتصديقًا بكتاب الله، وأخذًا بدين الإسلام.

والصِّراط المستقيم له إضافتان:

- **إحداهما**: إضافته إلى سالكيه، ومنه أُخِذ اسم (السَّائرين إلى الله)، وفيه قوله تَعَالَىٰ:

﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ [الفاتحة:٧]، فجعلَ (الصِّراط) مضافًا إلى سالكه.

- **والآخر**: إضـــافته إلى واضـــعه - وهو الله -، ومنه قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ ﴾ [الأنعام:١٥٣] الآية.

ذكر هاتين الإضافتين ابن تيميَّةَ الحفيد، وصاحبه أبو عبد الله ابن القيِّم.

والفرق بين الإضافتين:

- أنَّ إضافة (الصِّراط) إلى الله إضافةُ وضعٍ وإيجادٍ.
- وإضافتَه إلى سالكيه إضافةُ سيرٍ واتِّباعٍ.

فالله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الَّذي شـــرعه فوضـــعه، وأمرنا بســـلوكه؛ فمن أجاب داعي الله وسار فيه مُتَّبعًا أمره فهو سالِكُه.

وقد جعل المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ **مدار سعادة السَّائرين إلى الله على أمرين:**

أحدهما: تجنُّب سبل الرَّدى؛ أي طرق الهلاك.

والآخر: تيمُّم منازل الرِّضـــوان؛ أي قصـــدُ المنازل المحقِّقة رضـــا الله، وهي أنواع العبادة؛ كالإخلاص، والتَّوكُّل، والحبِّ، والرَّجاء، والخوف.

سُـــمِّيت (منازلَ) باعتبار تعلُّقها بالطَّريق الَّذي هو الصِّـــراط المســـتقيم، فهي فيه كالمواضع الَّتي يَنزلها المسافر في طريقه فيتزوَّد فيها بما يقوِّيه ويعينُه على سفره.

فشُهِرت أنواع العبادة باسم (منازل السَّائرين إلى الله)؛ لِما تقدَّم من إضافة الصِّراط المستقيم إليهم؛ لأنَّهم يأخذون فيه، ويجتهدون في الوصول إلى الله بسلوكه.

وصنَّف فيها أبو إسماعيلَ الهَرويُّ كتابه «منازلَ السَّائرين»، وشرحه أبو عبد الله ابن القيِّم شرحًا نافعًا اسمه «مدارج السَّالكين».

ثمَّ قَفَاهما المصنِّف فنظم هذه القصيدة المشتمِلةَ على شيءٍ من منازل السَّير إلى الله، ذاكرًا بعض أنواع العبادة الَّتي إذا تحقَّق بها العبد كان مُنقِّلًا قلبَه في سيره إلى الله عَزَّوَجَلَّ بما يُصيب منها، فإنَّ سير السَّائرين إلى الله يكون بالقلب لا بالبدن؛ ذكره ابن القيِّم في «الفوائد» و«مدارج السَّالكين»، وقال في الأوَّل منهما: (فاعلم أنَّ العبد إنَّما يقطع منازلَ السَّير إلى الله بقلبه وهمَّته، لا ببدنه)، وإليه أشار الشَّاعر بقوله:

قَطْعُ الْمَسَافَةِ بِالْقُلُوبِ إِلَيْهِ لَا ... بِالسَّيْرِ فَوْقَ مَقَاعِدِ الرُّكْبَانِ

إذا عُلِم هذا؛ فإنَّ **السُّعداء السَّائرين إلى الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **جامعون بين أمرين:**

- **أحدهما**: تجنُّب ما يُردي؛ وهو في قوله: (سَعِدَ الَّذِينَ تَجَنَّبُوا سُبُلَ الرَّدَى).
- **والآخر**: امتثال ما يُرضي؛ وهو في قوله: (وَتَيَمَّمُوا لِمَنَازِلِ الرِّضْوَانِ).

وهذان الأمران هما المُشار إليهما عند المتكلِّمين في باب الرَّقائق والسُّلوك باسم (التَّخلية والتَّحلية).

فالتَّخلية: تفريغ القلب من كلِّ ما يضرُّه ويُرْدِيه.

والتَّحلية: مَلء القلب بكلِّ ما ينفعه ويقوِّيه.

وهما المذكوران في بيت المصنِّف، فإنَّ التَّخلية تقع باجتناب كلِّ ما يضرُّ ويُرْدِي، وتقع التَّحلية بإمداد القلب بكلِّ ما ينفعه ويقوِّيه.

فإذا لاحظ العبدُ قلبَه بنفي المُرْدِيات عنه، وملئِه بالمقوِّيات؛ صار جامعًا بين التَّخلية والتَّحلية، فقويَ قلبُه، وحصل له النَّفع والانتفاع.

والتَّخلية مرتبةٌ تسبق التَّحلية، فإنَّه لا يَتأتَّى تحلية القلب بما يقويِّه ويَزينُه إلَّا بعد تخليته؛ فالقلب بمنزلة الوعاء المتَّسِخ، فإذا غُسِل هذا الوعاء ثمَّ ملأه صاحبُه بما شاء

من شرابٍ طيِّبٍ ساغ له الشَّراب، وإن بادر إلى جعل الشَّراب الطَّيِّب في الإناء المتَّسخ لم يلتذَّ به، فالتَّخلية مرتبةٌ تسبق التَّحلية، وهذا هو الَّذي دعا المصنِّفَ إلى تقديمها، فقدَّمَ اجتنابَ المُرْدِي، ثمَّ أتبعَه قصدَ المُرضي.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

فَهُمُ الَّذِينَ قَدَ اخْلَصُوا فِي مَشْيِهِمْ مُتَشَرِّعِينَ بِشِرْعَةِ الْإِيمَانِ

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللَّهُ:

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ **أوَّل منازل السَّائرين إلى الله**، فقال:

(فَهُمُ الَّذِينَ قَدَ اخْلَصُوا فِي مَشْيِهِمْ مُتَشَرِّعِينَ بِشِرْعَةِ الْإِيمَانِ)

ومراده بـ(المشي): سيرُهم إلى الله.

وأشار إليه بـ(المشي) لأنَّه الأصل في الحركة والانتقال، أمَّا الرُّكوب فإنَّه يكون بواسطةٍ - كركوب دابَّةٍ ونحوها -، فالأصل في حركة العبد وانتقالِه وقوعُه بالمشي، وهو الوارد كثيرًا في خطاب الشَّرع عند ذكر فعل العبادة حركةً وانتقالًا.

و(**الإخلاص**) **شرعًا**: تصفية القلب من إرادة غير الله، وإلى هذا أشرتُ بقولي:

إِخْلَاصُنَا للهِ صَفُّ الْقَلْبَ مِنْ إِرَادَةٍ سِوَاهُ فَاحْذَرْ يَا فَطِنْ

فسير أولئك السُّعداء واقعٌ على وجه الإخلاص لله، فهم مخلِصون له.

وهم أيضًا متمسِّكون بالشِّرعة الإيمانيَّة؛ أي متَّبعون للنَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذا البيت نظير قول ابن القيِّم في «نونيَّته»:

فَلِوَاحِدٍ كُنْ وَاحِدًا فِي وَاحِدٍ أَعْنِي طَرِيقَ الْحَقِّ وَالْإِيمَانِ

فإنَّ البيتين المذكورين جامعان للإخلاص لله، والاتِّباع للرَّسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعليهما يدور قبول العمل.

قال شيخ شيوخنا حافظُ الحكميُّ في «سلَّم الوصول»:

شَــرْطُ قَبُولِ السَّــعْيِ أَنْ يَجْتَمِعَا فِـيـهِ إِصَـــابَـةٌ وَإِخْـلَاصٌ مَـعَـا

ومعنى (الإصابة): موافقةُ الهدي النَّبويِّ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَهُمُ الَّذِينَ بَنَوْا مَنَازِلَ سَيْرِهِمْ بَيْنَ الرَّجَا وَالْخَوْفِ لِلدَّيَّانِ
وَهُمُ الَّذِينَ مَلَا الْإِلَهُ قُلُوبَهُمْ بِوِدَادِهِ وَمَحَبَّةِ الرَّحْمَنِ

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى ثلاثةَ منازلَ أُخَرَ من منازل السَّير إلى الله، هي **الرَّجاء، والخوف، والمحبَّة**، وهؤلاء الثَّلاث من أجلِّ منازل السَّائرين إلى الله، فقلوب السَّائرين إليه مملوءةٌ برجائه وخوفه ومحبَّته.

و**(رجاء الله) شرعًا**: أملُ العبد بربِّه في حصول المقصود، مع بذل الجُهد وحسن التَّوكُّل.

فمدار الرَّجاء على أمرين:

✓ **أحدهما**: وجود الأمل بالله في قلب العبد.

✓ **والآخر**: اقترانُه ببذل الجُهد وحسن التَّوكُّل على الله.

فإنَّه إذا كان أملًا بلا بذل جهدٍ وحسن توكُّلٍ؛ لم تَصدُق فيه حقيقة (الرَّجاء).

و**(الخوف من الله) شرعًا**: فرار القلب إلى الله فزعًا وذُعرًا.

فمدار الخوف من الله على أمرين:

✓ **أحدهما**: فرار القلب إليه عَزَّوَجَلَّ، فإنَّ طمأنينة القلب تكون بإقباله على الله، فهو يفرُّ إليه ولا يفرُّ منه؛ قال الله تَعَالَى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠﴾[الذَّاريات]،

قال بعض السَّلف: «من خاف شيئًا فرَّ منه، ومن خاف الله فرَّ إليه».

✓ **والآخر**: كون ذلك الفرار واقعًا فزعًا وذُعرًا؛ فإنَّ مهيِّجات القلب في الفرار مختلِفةٌ، ومنها الفزع والذُّعر.

والفرق بينهما:

- أنَّ **الفزع** مبتدأُ الخوف.
- **والذُّعرَ** نهايتُه.

فإنَّ مبتدأ حركة القلب عند خوفه أن يفزعَ، ثمَّ إذا استمرَّ هذا الوارد فيه صار ذعرًا.

و(**محبَّة الله**) **شرعًا**: تعلُّق قلب العبد بالله، ودوامُ ملاحظتِه رضاه.

فمدار محبَّته على أمرين:

✓ **أحدهما**: تعلُّق القلب به سُبْحَانَهُ؛ فيكون القلبُ قويَّ الصِّلة بالله، تامَّ الإقبال عليه، قويَّ الانشغال به.

✓ **والآخر**: دوامُ ملاحظة رضاه؛ لأنَّ من أحبَّ شيئًا لاحظ بعين العناية ما يُرضيه، فالصَّادق في محبَّة الله يُديم النَّظر إلى طلب ما يُرضي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهؤلاء المنازل - الرَّجاء، والخوف، والمحبَّة - هي أركان العبادة، **فهي مشيَّدةٌ على ثلاثة أركانٍ:**

- **أوَّلها**: حبُّ الله.
- **وثانيها**: رجاء الله.
- **وثالثها**: خوف الله.

فمن عَبد الله بهذه الأركان الثَّلاثة؛ استكمل حقيقة عبادة الله، ومن عَبده ببعضها؛ لم

يستكمل حقيقة العبادة.

وهذا معنى قول بعض السَّلف: «من عبد الله بالخوف فهو حَروريٌّ، ومن عبد الله بالرَّجاء فهو مرجئٌ، ومن عبد الله بالمحبَّة فهو زنديقٌ، ومن عبد الله بالرَّجاء والخوف والمحبَّة فهو عبدٌ موحِّدٌ».

والإشارة في هذه الأركان في الأفراد الَّتي ذكرها: باعتبار مَن وقع منهم الزَّيغ فيها، فإنَّ الَّذين عبدوا الله بملاحظة رجائه دون إعمال ما ينبغي من محبَّته وخوفه وقعوا في الإرجاء، ومن عبدوه بالخوف دون ملاحظة رجائه ومحبَّته وقعوا في مذهب الحَروريَّة - وهم الخوارج -، ومن عبدوه بملاحظة المحبَّة دون رجائه وخوفه وقعوا في الزَّندقة؛ أي في الانحلال من الدِّين، فإنَّهم تَهتَّكوا فيما يفعلون من المحارم - وهي طريقة جماعةٍ من إباحيَّة المتصوِّفة - بدعوى أنَّهم يحبُّون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يَخلُص من هذه العَوارض وأمثالها إلَّا من عبد الله بالرَّجاء والمحبَّة والخوف؛ فإنَّه يكون حينئذٍ عبدًا موحِّدًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهذه الأمور الثَّلاثة للعبد بمنزلة الرَّأس والجناحين للطَّائر، فالمحبَّةُ رأسٌ، والخوف والرَّجاء جناحان، فإذا كان قلب العبد تَرأسُه المحبَّة قادتْه إلى خيرٍ، فإنَّها تَسوقه إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بملاحظة رضاه، ويقوى تحليق القلب بوجود الخوف والرَّجاء، فيكون العبد بمنزلة الطَّائر الَّذي يختار برأسه - الَّذي هو المحبَّة - ما شاء من جهةٍ، ثمَّ يُبلِّغه تلك الجهةَ الجناحان - الخوف والرَّجاء -، فإذا فَقد شيئًا من ذلك أضرَّ ما فَقد بعبوديَّته لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والمطلوب من الرَّجاء: ملءُ العبد قلبَه بإحسان الظَّنِّ بالله، مقترنًا ببذل الجهد

وحسن التَّوكُّل.

والمطلوب من الخوف: ما حملَك على أداء الفرائض واجتناب المحارم؛ ذكره أبو الفرج ابن رجبٍ.

وأمَّا محبَّة الله فالمطلوب منها لا ينتهي إلى حدٍّ، فكلَّما استغرق العبدُ في محبَّة الله، استغرق في الرِّفعة عنده، فلا حدَّ لها به تُحَدُّ، ولا منتهى إليه تُرَدُّ.

بخلاف الخوف والرَّجاء، فإنَّ الخوف إذا تَتايع به العبدُ وغَلب على قلبه أوقعه في القُنوط من رحمة الله، كما أنَّ الرَّجاء إذا تَتايع فيه العبد وزاد عن حدِّه أوقعه في الأمن من مكر الله؛ فالعبد محتاجٌ إلى حدِّ رجائه وخوفه بما يُحقِّق المطلوب الشَّرعيَّ - بما ذكرناه سابقًا -، وأمَّا محبَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فلا حدَّ لها، فإنَّ قوَّة تعلُّقِ قلب العبد بالله لا تنتهي إلى شيءٍ يمكن أن يُقاس ويُحَدَّ به الحبُّ، لكنَّ شرطَ صدقِ تلك المحبَّة هو أن يكون العبدُ دائمَ الملاحظة لِما يرضاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإذا قَويت هذه المحبَّة في قلب العبدِ حَملتْه على الطَّاعات ومنعته من المعاصي.

فأعظم شيءٍ يسوقُ العبدَ إلى موافقة حُكم الله الشَّرعيِّ هو استغراق القلب في محبَّته، وأمَّا الوالِغ في المعاصي، المتهتِّك فيها، الزَّاعم حبَّ الله - كفعل جماعةٍ من إباحيَّة أهل التَّصوُّف الَّذين يقعون في المحرَّمات، ويزعمون أنَّهم يحبُّون الله -؛ فهذا كاذبٌ في دعواه، وفيه قالت رابعةُ العَدويَّةُ:

تَعْصِي الْإِلَهَ وَأَنْتَ تَزْعُمُ حُبَّهُ ... هَذَا لَعَمْرِي فِي الْقِيَاسِ بَدِيعُ

لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ ... إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَهُمُ الَّذِينَ قَدَ اكْثَرُوا مِن ذِكْرِهِ فِي السِّرِّ وَالْإِعْلَانِ وَالْأَحْيَانِ

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللَّهُ:

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ من منازل السَّائرين إلى الله: **دوام اللَّهج بذكرِه**.

و(**ذِكر الله**) **شرعًا**: إعظام الله وحضوره بالقلب واللِّسان أو أحدِهما.

وذكر الله نوعان:

- **أحدهما**: ذكرُ الله المتعلِّق بالخبر.
- **والآخر**: ذكرُ الله المتعلِّق بالطَّلب.

وتفصيل هذه الجملة يطول، وسبق بيان شيءٍ منه في شرح «الزِّيادة الرَّجبيَّة» عند الحديث الخمسين، فينبغي الوقوف على ذلك [1]؛ لِما فيه من البيان الوافي لحقيقة ذكر

---

(١) قال شيخنا وَفَّقَهُ ٱللَّهُ في شرح «الزِّيادة الرَّجبيَّة»:

والنَّوع الأوَّل - ذكر الله المتعلِّق بالخبر - نوعان أيضًا:

* **أحدهما**: ذكر الله المتعلِّق بخبره عن نفسه في أسمائه وصفاته، **وهو قسمان:**

- **الأوَّل**: ذكره بالثَّناء عليه بها؛ كالتَّسبيح والتَّحميد، بقولك: سبحان الله، والحمد لله، ونظائرهما.
- **والثَّاني**: ذكره بالخبر عن أحكامها؛ كقولك: إنَّ الله يسمع الأصوات ويرى الحركات.

* **والآخر**: ذكر الله المتعلِّق بخبره عن خلقه في قدره ومفعولاته، **وهو قسمان:**

- **الأوَّل**: ذكر آلائه وإحسانه وأنواع نعمائه؛ كالسَّمع، والبصر، والمشي.
- **والثَّاني**: ذكر أيَّامه وعذابه وأنواع عقابه؛ كالصَّعقة، والمسخ، والخسف.

والنَّوع الثَّاني من نوعي الذِّكر - ذكر الله المتعلِّق بالطَّلب - نوعان أيضًا: =

الله كما جاء مبيَّنًا في دلائل القرآن والسُّنَّة، وأَفصح عنه جماعةٌ من المحقِّقين؛ منهم ابن تيميَّة الحفيد، وصاحبه ابن القيِّم، وحفيده بالتَّلمذة أبو الفرج ابن رجبٍ.

فالمذكور هنا من منازل السَّير إلى الله هو اللَّهج بذكره، المشار إليه بقوله:

(وَهُمُ الَّذِينَ قَدَ اكْثَرُوا مِن ذِكْرِهِ .....)

فهم مُكثِرون من ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وجميع أوقاتهم مملوءةٌ به، كما أشار إلى ذلك بقوله: (الْأَحْيَانِ) أي الأوقات.

ومنه ما جاء في صفة النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنَّه كان يذكر اللهَ في كلِّ أحيانه. رواه مسلمٌ من حديث عائشةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا؛ أي أنَّه كان مديمًا ذكر الله في كلِّ أوقاته؛ فالمقتدون به صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من السَّائرين إلى الله يكثِرون من ذكر الله.

وصفة ذكرهم له في أحيانهم: السِّرُّ والإعلان، فهم ملازِمون ذكر الله في الخفاء

= * **أحدهما**: ذكر الله المتعلِّق بالطَّلب علمًا وتبليغًا؛ **وهو قسمان**:

- **الأوَّل**: ذكر أمره ونهيه بالعلم به أمرًا ونهيًا وإذنًا؛ كفرض الصَّلاةِ المكتوبة، وتحريم الخمر، وحلِّ السَّمك.

- **والثَّاني**: ذكر أمره ونهيه بالخبر عنه أمرًا ونهيًا وإذنًا؛ كقولك: إنَّ الله أمر بإقامة الصَّلاة، وحرَّم الزِّنى، وأحلَّ السَّمك.

* **والآخر**: ذكر الله المتعلِّق بالطَّلب عملًا وجزاءً، وهو **قسمان**:

- **الأوَّل**: ذكر أمره ونهيه بالعمل به مسابقةً إلى أمره، وفرارًا عن نهيه.

- **والآخر**: ذكر أمره ونهيه بالجزاء عليه أجرًا على امتثال المأمور، ووزرًا على انتهاك المحرَّم المحظور.

هذا جامع شتات أنواع الذِّكر ملتقَطًا من كلام جماعةٍ من أهل العلم؛ كأبي العبَّاس ابن تيميَّةَ، وتلميذه أبي عبد الله ابن القيِّم رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ، ومن تدبَّره وعى سَعة رحاب ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، فمثلًا: طلب العلم هو من ذكر الله؛ قال عطاءُ ابن أبي رباحٍ: «مجلسٌ يَتعلَّم فيه العبد الحلال والحرام من ذكرِ الله».

والعلن.

وتقدَّم أنَّ **الإسرار** هو إسماعُ العبد نفسَه دون إرادةِ إسماع غيره؛ وإن سمع، وأنَّ **الجهر** هو إرادة العبد إسماعَ نفسِه وغيرِه؛ وإن لم يسمع.

فهذا أحسنُ ما دلَّ عليه ا لوضع الشَّرعيُّ واللُّغويُّ في حقيقة (الإسرار والجهر)، وهي من دقائق المسائل، حتَّى قال أحدُ أذكياء النَّاس من أهل العلم - وهو أبو الفتح ابن دقيق العيد -: «لا أعلم الفرق بين السِّرِّ والجهر» أي لخفاء المأخذ ودقَّته، والأشبه ملاحظة المعنى الَّذي تقدَّم ذِكره.

فهؤلاء السَّائرون إلى الله يذكرون الله في جميع الأحيان سرًّا وجهرًا؛ لأنَّهم يرون أنَّ ذكر الله غذاء قلوبهم، ودواء كُلومهم، فيَستغنون بذكر الله عن ذكر الخلق؛ قال عبد الله ابن عونٍ: «ذكر الله دواءٌ، وذكر النَّاس داءٌ»، وقال مكحولٌ الشَّاميُّ: «ذكر الله شفاءٌ، وذكر النَّاس داءٌ»؛ فالعبدُ بين ذكر ربِّه وذكر خَلقه؛ فإن كان مقبِلًا على ذكر الله معتنيًا به فقد أصاب الدَّواء المنتِجَ للشِّفاء، وإن كان منشغلًا بذكر الخلق فقد أصاب الدَّاء المنتِجَ للشَّقاء.

فمن ترقية القلب وتقويته: دوامُ اللَّهَج بذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والإعراض عن ذكر النَّاس؛ لأنَّ ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقوِّي القلب ويَنفعه، ويُمِدُّه بأسباب القوَّة، وأمَّا ذكر الخَلق فإنَّه يُشقي القلب ويُضعِفه، فيَنشغل به العبد عن الله، ويصير محجوبًا بالخلق عن الحقِّ.

فمن أدامَ ذكر الخلق شغلوه عن ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومن أدام ذكر الله شُغِل به عن ذكر الخلق، وهذا معنى قول أبي إدريسٍ الخَولانيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أكثِروا ذكر الله حتَّى يقولوا:

مجنونٌ» - ورُوِي في حديثٍ مرفوعٍ لا يصـحُّ - أي أديموا ذكر الله حتَّى يظنَّ النَّاس أنَّ بكم جِنَّةً؛ لأنَّ مَن أكثر من ذكر الله غلبت عليه العُزلة عن الخلق، وكره مخالطتهم، وصار منفردًا عنهم غالبًا، فهم يظنُّونه لذلك بمنزلة المجنون، وهو العاقل حقًّا، وضدُّه هو المجنون صدقًا؛ فإنَّ الَّذي يُشغِل نفسَه بذكر الخَلق ويُقلِّب أحوالَهم على لسانه، تُفضي هذه الأحوال إلى قلبِه، فيَفسد بما يَذكره منها، هذا لو كان يسوقها دون وقوع غِيبةٍ أو غيرها من الأحوال المُزرية للِّسان، فكيف إذا كانت مع الغِيبة والنَّميمة والحقد والحسد والغلِّ، فهي أعظم شرًّا، وأكبَر خطرًا على العبد من مجرَّد الذِّكر الَّذي يُراد به الخبر، فإذا كان الذِّكر الَّذي يُراد به الخبر حجابًا يمنع قلب العبد ممَّا ينفعه؛ فإنَّ ما يشتمل على فسادٍ من أقوال اللِّسان - كالغيبة، والنَّميمة، والحقد، والحسد - أشدُّ إفسادًا للقلب من هذا.

فينبغي للعبد أن يَصون قلبه، وأن يرعاه متحفِّظًا من ذكر النَّاس على لسانه، وأن يُشغِل لسانه بذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فمن أشغل نفسه بالطَّاعة حجبته عن المعصية، ومن ترك نفسه للمعصية لم تزل هذه المعصية تجرُّه شيئًا فشيئًا حتَّى يقع في أكبر منها.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

يَتَقَـــرَّبُونَ إِلَى الْمَلِيكِ بِفِعْلِهِمْ طَـاعَـاتِـهِ وَالـتَّـرْكِ لِـلْـعِصْـيَـانِ
فِعْـلُ الْفَـرَائِضِ وَالـنَّـوَافِـلِ دَأْبُـهُـمْ مَـعَ رُؤْيَـةِ الـتَّـقْصِـيـرِ وَالـنُّـقْصَـانِ

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ من منازل السَّائرين إلى الله: **إرادة التَّقرُّب إليه**؛ فمحرِّك قلوبهم، ووازع نفوسهم، وباعث هِممهم بالسَّير إلى الله هو طلب القرب منه سُبْحَانَهُ.

ويَصدقُ طلب القُرب بموافقة أمره، فمن أراد القُرب من الله فَلْيمتثِل أمرَه، فإنَّه من امتثل أمر الله قرَّبه منه وأدناه إليه، ومن أعرض عن أمر الله أعرض الله عنه.

فمِن شُغل السَّائرين إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: إرادةُ التَّقرب إليه عَزَّوَجَلَّ؛ لِما فيه من صلاح قلوبهم، وكمال أحوالهم، فهم منصرِفون إلى هذا، مائلون عن طلب التَّقرُّب إلى الخلق؛ فإنَّ من الغَبن المستبين، والنَّقص المبين: أن يَغفل العبد عن طلب التَّقرُّب إلى الله، وينشغلَ بطلب التَّقرب إلى خلق الله، فتكون همَّته وبغيته طلبَ التَّقرُّب إلى رؤساء النَّاس من العلماء أو الأمراء، مع تفريطه فيما ينبغي له من التَّقرُّب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإنَّ الخلق - من كانوا وحيث كانوا - لا ينفعون ولا يضرُّون، ولا يَزيدون ولا يُنقِصون، ولا يُقِلُّون ولا يُكثِرون، فإذا اشتغل العبد بطلب القرب منهم غفل عمَّن بيده الأمر كلُّه، وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فمفاتيح منافع العلوم بيد الله لا بيد العلماء، ومفاتيح منافع الدُّنيا بيد الله لا بيد الأمراء، وإنَّما هؤلاء أسبابٌ يُجري الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بهم ما شاء من ذلك

من علمٍ أو مالٍ، وأمَّا تدبير الأمر كلِّه فبِيَد الله وحده.

فينبغي أن يطلب العبد قربَه من الله؛ فإنَّ مَن طلب قُرب الله أغناه عمَّا سواه، قال تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطَّلاق:٣]، وقال تَعَالَىٰ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزُّمر:٣٦]، وفي القراءة الثَّانية: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عِبَادَهُۥ﴾؛ فعلى قدر ما يُحصِّل العبد من كمال العبوديَّة بطلب التَّقرُّب إلى الله تكون كفاية الله ورعايتُه له.

فالعارفون بالله السَّائرون إليه يطلبون التَّقرُّب منه وحدَه سُبْحَانَهُ، وتقرُّبُهم يكون بما ذكره في قوله:

(..... طَاعَاتِهِ وَالتَّرْكِ لِلْعِصْيَانِ)

فهم يطلبون القرب من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **ويسلكون أمرين:**

أحدهما: فعل الطَّاعات.

والآخر: ترك المعاصي والسَّيِّئات.

ثمَّ أشار رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى تفصيل مجمل الطَّاعات فقال:

(فِعْلُ الْفَرَائِضِ وَالنَّوَافِلِ دَأْبُهُمْ .....)

فإنَّ هذا الشَّطر تفصيلُ قوله: (بِفِعْلِهِمْ طَاعَاتِهِ)، **فطاعة الله** هي موافقة حكمه الشَّرعيِّ، **ولها نوعان:**

- **أحدهما**: طاعة فريضةٍ.
- **والآخر**: طاعة نافلةٍ.

وهما المذكوران في الحديث الإلهيِّ الَّذي رواه البخاريُّ من حديث أبي هريرةَ عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال: «**مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا**...» حتَّى قال: «**وَمَا**

تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَـيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْـتُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ...» الحديث، فذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّ التَّقرُّب بالطَّاعات مَداره على الفرائض والنَّوافل.

والفرائض: اسمٌ للشَّرائع اللَّازمة للعبد لزومًا مجزومًا به.

والنَّوافل: اسمٌ للشَّرائع اللَّازمة للعبد لزومًا غير مجزومٍ به.

فهؤلاء السَّـائرون إلى الله المتقرِّبون إليه بالطَّاعات يفعلون ما يفعلون من الفرائض والنَّوافل، ويجمعون بينهما، فهي عادتُهم اللَّازمة لهم، **فالدَّأَب**: العادة المستمرَّة.

وهم مع فعلهم تلك الطَّاعات، ينظرون إلى أنفسهم بعين النَّقص والعيب؛ كما قال:

(..... مَعَ رُؤْيَـةِ التَّقْصِـيرِ وَالنُّقْصَـانِ)

فهم لا ينظرون إلى أعمـالهم بعين الاغترار والإدلاء على الله عَزَّوَجَلَّ، فلا يَرون لأنفسهم شيئًا، وإنَّما وُفِّقوا إلى هذه الطَّاعات بفضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والفاعلون الطَّاعاتِ العاملونَ بها لهم مع أنفسهم مقامان:

- **أحدهما**: مقام الافتقار والانكسار.
- **والآخر**: مقام الاستكبار والاغترار.

فمِن النَّاس من إذا فعل الطَّاعة زاد انكسارُه لله وافتقارُه إليه، فهو يرى أنَّ تلك الطَّاعة بتوفيق الله له، وأنَّه لا يَقدر على شـيءٍ منها إلَّا بعونٍ من الله، ومِن الخلق مَن إذا فعل الطَّاعة اغترَّ بها، واستكبر على الله وعلى خلقه، فهو دائم الإدلاء بهذه الطَّاعة، وإيَّاه قَصد سـعيدُ بن جُبيرٍ في قوله: «إنَّ الرَّجل ليعمل الحسـنة يَدخل بها النَّار»، وتفسـيره أنَّه يعمل الحسنة فتُكسِبه استكبارًا واغترارًا، فتكون سببَ دخوله النَّار.

فاللَّائق بالعبد إذا وُفِّق للطَّاعات أن ينكسر لله، وأن يطلب الزِّيادة منها؛ شكرًا لله على ما أسدى إليه من التَّوفيق للعبادة، فالطَّاعة الَّتي يصيبها أحدُنا لا يستمدُّها من ماله أو أصله أو لونه أو جاهه أو رئاسته، وإنَّما يستمدُّها من توفيق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له، فمَن زاد انكسارُه لله وافتقارُه له؛ زاد مقامُه في العبوديَّة وارتفع، ومن اغترَّ بحسناته واستكبر بها على الخلق؛ كانت تلك الحسنات سببًا لشقائه وخسرانه وبَواره.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

صَــبَرُوا النُّفُوسَ عَلَى الْمَكَارِهِ كُلِّهَا ... شَــوْقًا إِلَى مَا فِيهِ مِنْ إِحْسَـانِ
نَزَلُوا بِمَنْزِلَةِ الرِّضَـى فَهُمُ بِهَا ... قَدْ أَصْـبَحُوا فِي جُنَّةٍ وَأَمَانِ
شَــكَرُوا الَّذِي أَوْلَى الْخَلَائِقَ فَضْلَهُ ... بِـالْـقَـلْـبِ وَالْأَقْـوَالِ وَالْأَرْكَـانِ

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في هذه الجملة ثلاثة منازلَ من منازل السَّائرين إلى الله؛ هي **الصَّبر، والرِّضا، والشُّكر**.

فذكر الصَّبر في قوله:

(صَــبَرُوا النُّفُوسَ عَلَى الْمَكَارِهِ كُلِّهَا ... شَــوْقًا إِلَى مَا فِيهِ مِنْ إِحْسَـانِ)

وحقيقة (الصَّبر) شرعًا: حبسُ النَّفس على حكم الله.

وحكم الله نوعان:

- **أحدهما**: حكم الله القدريُّ، وحبس النَّفس عليه: التَّجمُّل بالصَّبر، وترك التَّسخُّط على الأقدار.

- **والآخر**: حكم الله الشَّرعيُّ، وحبس النَّفس عليه: بتصديق الخبر، وامتثال الطَّلب، واعتقاد حلِّ الحلال.

فالصَّبر يتعلَّق بهذا وذاك؛ فيَصبر العبد على حكم الله النَّازل به من جهة القدر متجمِّلًا بالصَّبر، مجتنبًا التَّسخُّطَ والجزع، ويَصبر نفسَه على حكم الله الشَّرعيِّ حابسًا نفسَه عليه بتصديق خبره، وامتثال طلبه - بأن يفعل المأمور ويترك المحظور -، مع

اعتقاد حلِّ الحلال.

ثمَّ ذكر منزلةً فوق منزلة الصَّبر، وهي منزلة الرِّضا، فقال:

(نَزَلُوا بِمَنْزِلَةِ الرِّضَى فَهُمُ بِهَا قَدْ أَصْبَحُوا فِي جُنَّةٍ وَأَمَانِ)

وحقيقة (الرِّضا) شرعًا: تلقِّي أحكام الله بانشراحٍ وسرورِ نفسٍ.

وهو فوق الصَّبر؛ لأنَّ منازعة حكم الله تضمحلُّ مع الرِّضا، فالعبد يجد مع الصَّبر مرارةً وألمًا، ويَفقدها مع الرِّضا، فإذا رضي العبد لم يَبق في نفسه ما يجذبها إلى الجزع والتَّلوُّم من الأقدار.

ثمَّ ذكر مقامًا أعلى، وهو منزلة الشُّكر، فقال:

(شَكَرُوا الَّذِي أَوْلَى الْخَلَائِقَ فَضْلَهُ بِالْقَلْبِ وَالْأَقْوَالِ وَالْأَرْكَانِ)

وحقيقة (الشُّكر) شرعًا: ظهور ثناء العبد على ربِّه في قلبه إقرارًا، وفي لسانه اعترافًا، وفي جوارحه فعلًا وتركًا؛ ذكره ابن القيِّم في «مدارج السَّالكين».

وهذه المقامات الثَّلاثة - الصَّبر، والرِّضا، والشُّكر - هي مقامات القلوب في تلقِّي أحكام الله، **فالقلب له في تلقِّي أحكام الله الشَّرعيَّة والقدريَّة واحدٌ من هذه المقامات:**

- **فأوَّلها**: الصَّبر.
- **وثانيها**: الرِّضا.
- **وثالثها**: الشُّكر.

وهي مرتَّبةٌ تَعلِّيًا، فالصَّبر دون الرِّضا، والرِّضا أعلى منه، والرِّضا دون الشُّكر، والشُّكر أعلى منه.

فمن النَّاس من يَحبس نفسه على حكم الله القدريِّ أو الشَّرعيِّ، ويجدُ في قلبه مرارةً

وألمًا؛ فيكون صابرًا.

ومن النَّاس من يَخلُص قلبه من هذه المرارة، فلا يجد ألمًا لِما تعلَّق به من حكم الله شرعًا أو قدرًا، ويتلقَّاه بسرورٍ وانشراح صدرٍ؛ فيكون ممَّن نزل منزلة الرِّضا.

ومن النَّاس من يعلو فوق هؤلاء كلِّهم، فيتلقَّى ما نزل به من حكمٍ شرعيٍّ أو قدريٍّ بشكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه؛ فهو يشكر الله على ما نزل به من حكمٍ شرعيٍّ أو قدريٍّ؛ لِما يجده من عظيم منافع ما نزل به، فهو كامل التَّفويض لله، لا ينازعه في شيءٍ من أمره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بل يَحمله ذلك على ظهور ثناء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على قلبه ولسانه وجوارحه.

فالشَّاكرون أعلَى مرتبةً من أهل الرِّضا، وأهل الرِّضا أعلى مرتبةً من الصَّابرين.

وقد ذكر هذه المراتب الثَّلاث وأفاض في بيانها جماعةٌ من أهل العلم؛ منهم ابن تيميَّة الحفيدُ في مواضعَ من كتبه، وأبو عبد الله ابن القيِّم في «مدارج السَّالكين» وغيره، وأبو الفَرَج ابن رجبٍ في «جامع العلوم والحِكم» وغيره.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

صَـحِبُوا التَّوَكُّلَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ مَعَ بَـذْلِ جُهْـدٍ فِي رِضَـى الرَّحْمَنِ

عَبَـدُوا الْإِلَـهَ عَلَى اعْتِقَادِ حُضُـورِهِ فَـتَـبَـوَّؤُا فِـي مَـنْـزِلِ الْإِحْسَـان

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في هذه الجملة منزلين من منازل السَّائرين إلى الله؛ هما **التَّوكُّل، والإحسان**.

فهم يُصحِبون أنفسَهم التَّوكُّل على الله في جميع الأمور، صغيرِها وكبيرِها.

وحقيقة **(التَّوكُّل على الله) شرعًا**: إظهار العبد عجزَه لله واعتمادُه عليه.

فمدار التَّوكُّل على أمرين:

✓ **أحدهما**: إظهار العجز، وهذه حقيقة الافتقار، فمن أظهرَ ضعفه لله فهو مفتقِرٌ إليه.

✓ **والآخر**: الاعتماد على الله بتفويض الأمر إليه، فهو يفوِّض أمره إلى ربِّه.

وبهذا يكون التَّوكُّل صادقًا، فإنَّ هؤلاء توكُّلهم على الله صادقٌ قويٌّ، لا كذبٌ دعيٌّ، فهم يتوكَّلون على الله مفوِّضين أمرَهم إليه، مع بذل الجهد في موافقة حكم الله؛ تصديقًا لِما أخبر، وفعلًا لِما أمر، واجتنابًا لِما نهى؛ كما قال:

(..... مَعَ بَـذْلِ جُهْـدٍ فِي رِضَـى الرَّحْمَنِ)

وأمَّا التَّارك بذلَ الجهد فهو كاذبٌ في دعوى توكُّله على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهؤلاء السَّائرون هم يعبدون الله أيضًا بملاحظة مقام الإحسان، كما قال:

(عَبَدُوا الْإِلَهَ عَلَى اعْتِقَادِ حُضُورِهِ فَتَبَوَّؤُا فِي مَنْزِلِ الْإِحْسَانِ)

وهذا المنزلُ هو المذكور في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في حديث عمرَ عند مسلمٍ في قصَّة جبريلَ المعروفة -: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**».

وفيه أنَّ الإحسان له مرتبتان:

- **الأولى**: مرتبة المشاهَدة؛ وهي المذكورة في قوله: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**».
- **والثَّانية**: مرتبة المراقَبة؛ وهي المذكورة في قوله: «**فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**».

وحقيقة مرتبة (المشاهَدة): أن يعبدَ المرءُ ربَّه متخايِلًا أنَّه يشاهدُه؛ أي يستحضر مشاهدتَه لله.

وهذه المشاهَدة لحقيقة ذاته ممتنعةٌ، فإنَّ أحدًا لن يرى ربَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الدُّنيا، لكنَّه يُوقِع العبادة مع حضور هذا المعنى في قلبه.

ويقوِّي هذا المعنى في قلب العبد مشاهدةُ آثار صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهي الَّتي وقع الأمر بها في مواضعَ كثيرةٍ من القرآن؛ يُدعى فيها الخَلق إلى مشاهدة آثار صفات الله؛ كإنزال المطر، وإنبات الشَّجر، وإماتة الخلق، وغير ذلك، فإنَّ مشاهدة آثار الصِّفات تُقوِّي هذه المرتبة في قلب العبد.

وأمَّا مرتبة (المراقَبة) فحقيقتها: أن يعبد المرء ربَّه مستحضِرًا اطِّلاعَ الله عليه، وأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مراقبٌ له مطَّلعٌ عليه.

والمرتبة الأولى - وهي المشاهدة - أعظمُ من الثَّانية - وهي المراقبة.

وهذه المرتبة - مرتبة الإحسان - هي أصل أحوال القلوب، وما تعلَّق بها من الرَّقائق

والسُّلوك، وهي قسيمة الإسلام والإيمان في حديث جبريلَ الطَّويل - ففيه أنَّ مراتب الدِّين الثَّلاث هي الإسلام، والإيمان، والإحسان -، ومع جلالة هذه المرتبة فإنَّ العناية بها ضعيفةٌ في الخلق، فالكلام فيما يتعلَّق بها من الأحوال والآفات والعوارض قليلٌ جدًّا مع شدَّة الحاجة إليها، وأنَّ النَّفس لا تستقيم إلَّا بملاحظة الإحسان، فتجدُ عناية الخلق بالإحسان - طلبًا، وتحلِّيًا، وتحقُّقًا، وعملًا - قليلةً.

حتَّى صار ظاهرًا في النَّاس ضعفُ علمِهم بأبواب الرَّقائق والسُّلوك؛ بل إهمالُ ذلك؛ بل نسبةُ هذه العناية إلى غير طريقة أهل السُّنَّة والجماعة!! مع أنَّ أصول هذه العلوم هي علوم أهل السُّنَّة والجماعة، فالكتب الَّتي صنَّفها أئمَّة الهدى باسم الزُّهد كـ «الزُّهد» لأحمدَ، أو لأبي داودَ، أو لوكيعِ ابن الجرَّاح، أو لهنَّادِ بن السَّرِيِّ، أو غيرها من الكتب، أو تفاصيل جُملها ككتب ابن أبي الدُّنيا وغيره، هي حقيقةُ ما تنبغي العناية به، لكنَّ الضَّعف في هذا الأمر قديمٌ، واستمرَّ إلى هذا اليوم، حتَّى أنَّ المرء إذا أراد أن يقرِّر هذه المعاني في دروسٍ علميَّةٍ عدَّ بعضهم هذا من الاشتغال بما غيرُه أولى، ويقول: لا تحتاج أن تذهب إلى درسٍ فيه شرح «نونيَّة ابن القيِّم»؛ لأنَّ هذه المعاني تُعرَف من غير حاجةٍ إلى حقائقها! وهذا من الجهل البيِّن، فإنَّ مقامات الأحوال وما يتعلَّق بها من الرَّقائق والسُّلوك من أعظم العلم الَّذي يحتاجه النَّاس، وكَثُر الفساد فيهم بسبب ضعف هذا العلم فيهم، وهو علم الإحسان، فعلم الإحسان - بفروعه وفصوله وما تعلَّق به - صار ضعيفًا في النَّاس، فنشأ فيهم من الموبِقات والمهلِكات ما يَقطعهم عن الوصول إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فعلى طالب العلم ينبغي أن يعتني بهذا العلم، وأن يُكثِر النَّظر فيه، وأن يقرأ في كتب

السَّلف الَّتي صنَّفوها - ممَّا سمَّينا -، ويتفهَّم في ذلك، ويستعينُ بما صنَّف فيه جماعةٌ من محقِّقي أهل السُّنَّة؛ كابن ابن تيميَّة، وابن القيِّم، وأبي الفرج ابن رجبٍ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

نَصحُوا الْخَلِيقَةَ فِي رِضَى مَحْبُوبِهِمْ ... بِالْعِلْمِ وَالْإِرْشَادِ وَالْإِحْسَانِ
صَحِبُوا الْخَلَائِقَ بِالْجُسُومِ وَإِنَّمَا ... أَرْوَاحُهُمْ فِي مَنْزِلٍ فَوْقَانِي
بِاللهِ دَعْوَاتُ الْمَشَاهِدِ كُلِّهَا ... خَوْفًا عَلَى الْإِيمَانِ مِنْ نُقْصَانِ
عَزَفُوا الْقُلُوبَ عَنِ الشَّوَاغِلِ كُلِّهَا ... قَدْ فَرَّغُوهَا مِن سِوَى الرَّحْمَنِ
حَرَكَاتُهُمْ وَهُمُومُهُمْ وَعُزُومُهُمْ ... للهِ لَا لِلْخَلْقِ وَالشَّيْطَانِ
نِعْمَ الرَّفِيقُ لِطَالِبِ السُّبُلِ الَّتِي ... تُفْضِي إِلَى الْخَيْرَاتِ وَالْإِحْسَانِ

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

لمَّا فرغ المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ من ذكر حال أولئك السُّعداء من السَّائرين إلى الله مع ربِّهم، أتبعه بذكر حالهم مع الخلق، **فهذه القصيدة مقسومةٌ قسمين:**

أحدهما: حال السُّعداء في معاملتهم اللهَ.

والآخر: حال السُّعداء في معاملتهم خلقَ الله.

وهذا القسم الثَّاني هو المذكور في قوله:

(نَصحُوا الْخَلِيقَةَ فِي رِضَى مَحْبُوبِهِمْ .....)

إلى آخر الأبيات.

فهي في بيان حالهم مع الخلق، وأنَّهم ناصحون لهم في رضا الله؛ أي فيما يُقرِّبهم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهذه النَّصيحة تظهر في ثلاثة مسالكَ يَتصرَّفون بها مع الخلق، مذكورةٌ في قوله:

(..... بِـالْـعِـلْـمِ وَالْإِرْشَـــادِ وَالْإِحْسَـــانِ)

فالمسلك الأوَّل: أنَّهم ينصحون النَّاس بتعليمهم؛ فيبلِّغونهم خطاب الشَّرع.

والمســلك الثَّاني: نصــيحتُهم بالإرشــاد؛ فهم ينصــحون لهم بدلالتهم وهدايتهم، وحقيقة (**الإرشاد**): جعلُ العلم عملًا، فهم يدلُّونهم إلى ما يتحقَّق به العمل بالعلم.

والمسلك الثَّالث: نصيحتهم بالإحسان؛ فهم ينصحون للخلق بإيصال ما ينفعهم إليهم، فكلُّ أمرٍ ينفع الخلق في دينهم ودنياهم فإنَّه يُوصَل إليهم.

ثمَّ ذكر المصنِّف أنَّهم مصاحِبون للخلائق بجسومهم، أمَّا الأرواح فغير واقفةٍ مع رسوم الخلق؛ بل معلَّقةٌ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهم يُراعون حقائق الإيمان، ومشاهدَ الإحسان، في كلِّ حينٍ وآنٍ؛ خوفًا على إيمانهم من النُّقصان؛ كما قال:

(بِـاللهِ دَعْـوَاتُ الْـمَشَـــاهِـدِ كُـلِّـهَـا خَوْفًـا عَلَى الْإِيـمَـانِ مِنْ نُّقْصَـــانِ)

أي أنَّهم فيما يعامِلون به الخلقَ من المشــاهد الَّتي يجتمعون معهم فيها، يلاحظون أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ حفظًا لإيمانهم من النُّقصــان، فلا تحجُبهم تلك المشــاهد عن ملاحظة ما لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من حقٍّ.

ثمَّ قال:

(عَزَفُوا الْقُلُوبَ عَنِ الشَّــوَاغِلِ كُلِّهَا قَـدْ فَرَّغُوهَـا مِن سِــوَى الرَّحْمَنِ)

أي ممَّا قويت به قلوبهم في ملاحظة الخالق دون المخلوق: أنَّهم فرَّغوا القلوب من كلِّ ما يَشــغلها، ولم يَبق فيها ســوى إرادة مَحابِّ الله ومراضــيه، فلا شــيء تتوجَّه إليه وتتعلَّق به إلَّا ما يحبُّه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويرضاه، فحالهم كما قال:

(حَرَكَـاتُهُـمْ وَهُـمُومُهُـمْ وَعُـزُومُهُـمْ للهِ لَا لِـلـخَـلْـقِ وَالشَّـــيْـطَـانِ)

وقد أشار رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا البيت إلى **ثلاثة مقاماتٍ قلبيَّةٍ**:

- **أحدها**: الحركة؛ وهي الإرادة المجرَّدة.
- **وثانيها**: الهمُّ؛ وهي الإرادة المقترنة بالجزم.
- **وثالثها**: العزم؛ وهي الإرادة المقترنة بالجزم، مع تهيُّؤِ فعل أسباب المراد.

وهذه المقامات متفاوتة المرتبة، فـ(الحركة) دون (الهمِّ)، و(الهمُّ) دون (العزم):

- فـ (العزم) أعلاهنَّ رتبةً.
- ودونه (الهمُّ).
- ثمَّ دونه (الحركة).

فكلُّ توجُّهٍ قلبيٍّ هو (حركةٌ)، فإذا قوي صار (همًّا)، فإذا اشتدَّت قوَّته صار (عزمًا)، وربَّما يَعرِض توجُّهٌ قلبيٌّ، ثمَّ يَنحلُّ من قلب العبد - أي يضعف ويُفارق العبد -، وهذا هو (الخاطر).

ثمَّ ختم المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قصدته بقوله:

(نِعْمَ الرَّفِيقُ لِطَالِبِ السُّبُلِ الَّتِي تُفْضِي إِلَى الْخَيْرَاتِ وَالْإِحْسَانِ)

أي أنَّ هؤلاء السُّعداء الَّذين ذُكِرت صفتُهم هم خير من ينبغي للعبد أن يجعلَه رفيقًا يُقارِنه؛ ليوصلَه ذلك إلى ما تُحمَد عاقبتُه من الإفضاء إلى الخيرات والإحسان.

فأولى الخلق أن تُطلَب رُفقته هو من أقبل على ربِّه سُبْحَانَهُ، راغبًا فيما عنده، مشتغلًا بذكره، مقبلًا على ذنبه، راجيًا رحمة الله، خائفًا من عقوبته.

فمتى وَجدتَ عبدًا بهذه الحلية فاتَّخذه رفيقًا، فإنَّه أحقُّ مَن يُصحَب، وأولى من يُطلَب؛ فإنَّ المرء على دين خليله، فمن رافق هؤلاء السُّعداء سَعد - جعلنا الله وإيَّاكم

من السُّعداء -، ومن رغب عن صحبتهم إلى صحبة غيرهم من الأشقياء شَقي، فالمرء يسعد بقرينه أو يشقى به، والعاقل يلتمس من الرُّفقاء من يكون سببًا لسعادته لا لشقائه، قال الحسن البصريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لَأن تصحب أقوامًا يُخوِّفونك حتَّى يدركك الأمن، خيرٌ لك من أن تصحب أقواما يُؤمِّنونك حتَّى يَلحقك الخوف» أي أنَّ العبد إذا صحب من يذكِّره حقَّ الله ويحمِله عليه، فمهما وَجد من مشقَّة صحبة هذا فهو خيرٌ له، فإنَّه يَرِد على الله آمنًا، ومن ابتغى صحبةَ غيره ممَّن يَغفل معه قلبُه عن الله ويُفرط في حقِّه، فإنَّه يَرِد على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خائفًا.

بقي من تمام القول أنَّ البيت الرَّابع قبل آخر القصيدة ممَّا اضطربت فيه النُّسخ، وأشبه شيءٍ كان عندي هو هذا الضَّبط:

(بِاللهِ دَعْوَاتُ الـمَشَاهِدِ كُلِّهَا .....)

وهكذا قرأتُه على جماعةٍ؛ منهم: محمَّد بن سليمانَ بن جرَّاحٍ - عالم الكويت، وصاحب الشَّيخ ابن سعديٍّ -، ومنهم عبد الله بن عبد العزيز ابن عقيلٍ - وهو أيضًا من أصحاب الشَّيخ ابن سِعديٍّ رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ.

وشرح النَّاظم لا يوافق هذا فيما يظهر، فإنَّ كلام النَّاظم نفسَه في «شرحه» يتعلَّق بمنزلةٍ يُقال لها: (منزلة الرِّعاية)، وهي من المنازل الَّتي ذكرها الهَرويُّ في «منازل السَّائرين»، وشرحها ابن القيِّم في «مدارج السَّالكين».

وكنتُ انبعثَ إلى قلبي هذا الإشكال لمَّا سمعتُ شرحًا للشَّيخ عبد الرَّزَّاق العبَّاد في تعليقه على شرح النَّاظم، فإنَّه - في الشَّريط السَّابع أو الثَّامن - ذكر أنَّه متردِّدٌ في صحَّة هذا البيت، ثمَّ أخبرني أحد أصحابه أنَّه يرى أنَّ صوابه:

(رَعَوُا الْحَقَـائِقَ وَالْمَشَـــاهِـدَ كُلَّهَـا .....)

وهذا هو الصَّواب وَٱللَّهُأَعْلَمُ بعد النَّظر في أصل الكتاب، وأنَّه وقع فيه غلطٌ في التَّقديم والتَّأخير؛ فهو يتعلَّق بـــ(منزلة الرِّعاية)؛ وهي الحفظ والصِّـيانة، فهم يحفظون حقائق الإيمان ومشاهد الإحسان.

ولابن القيِّم كلامٌ نافعٌ في «مدارج السَّالكين» عن هذه المنزلة.

وهذا آخر البيان على الكتاب بما يناسب المقام.

وفَّق الله الجميع لِما يحبُّه ويرضاه، والحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله وسلَّم على عبده ورسوله محمَّد وآله وصحبه أجمعين [1].

(١) تمَّ شرح الكتاب في مجلس واحدٍ، بعد العصر يوم الجمعة الرَّابع عشر من جمادى الآخرة، سنة تسعٍ وثلاثين بعد الأربعمـــائة والألف، في مسجد مصعب بن عمير بمدينة الرِّياض، ومدَّته: ساعةٌ وتسع عشرة دقيقةً.

فَوَائِد

فَوَائِد

فَوَائِد

فَوَائِد